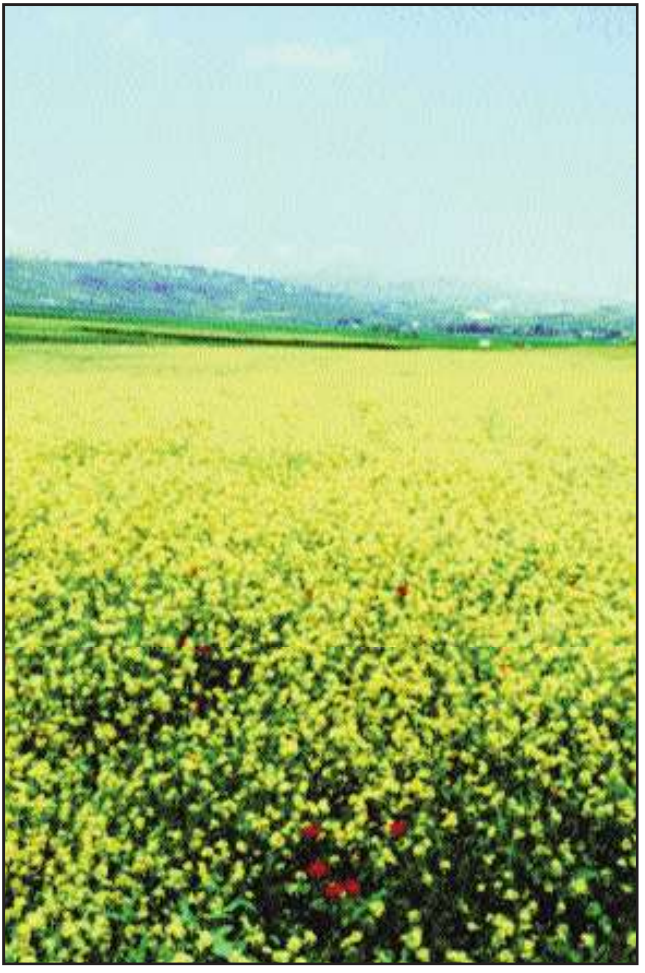

عرس النصر

Kamal Taher

عرس النصر

المكان: من أعمق غدير في النهر حتى أعلى صخرة فوق القلعة.

الزمان: صباح الرابع والعشرين من شهر أيار العام ألفين.

الحدث: اندحار العتمة وانبلاج فجر الانتصار.

التجمّع: تحت شجرات الكينا.

البرنامج: قراءة الفاتحة عن أرواح الشهداء،كلمة يُحْمُر العائدة مع النصر يلقيها "أبو طالب"، وكلمة يُحْمُر الصامدة يلقيها "الأستاذ محمد"، وفي الختام قصيدة لشاعر من شعراء البلدة، ثم يتوجّه الجميع إلى بيوت عوائل الشهداء والجرحى والأسرى للتهنئة والمباركة..

كما الطفل يولد بعد مخاض عسير، ينبلج الفجر بتصارع الظلمة والنور، تتفجَّر بتلاطم المياه والصخور والرياح ينابيع تعاند بُعد المسافات، تتشكَّل الأنهر مخترقة تزاحم الأودية والهضاب، لتعبِّر عن استمرارية الحياة وروحيَّة التحدِّي، وقدرتها على عبور الأمكنة والعصور..

يبقى النور مهما حاولت غياهب الدنيا حجبه سيِّداً، يبعث ضياءه ليتواصل مع القلوب الحالمة بالحرية، وطهر الروح يشمخ معانداً متحدياً قدرة الجلاد على قتل الأنفس والأجساد، تلك هي المسألة، حين تعتمر إرادة البقاء النفوس، فهي منتصرة لا محالة..

لملمت كل البلدات قلوب مصابيحها، أباحت لها بما تختزن، وغنَّت معها أناشيد النصر، منذ مئات السنين والنشيد غائب، بات هذا اليوم تاريخاً لا يُنسى (٢٤ /٥ /٢٠٠٠)، حفر على صدر الزمن صورةً لأبهى انتصار.

حين هبَّت الجماهير خلف راياتكم، مقتحمةً بوابات خيبر، زرعوها أعلى قمم أبي ذرٍّ الغفاري وأرادوها ملاذاً آمناً، فانقلبت البوابات على الجنود المختبئين خلفها، وخنقت هذا الرمق المتبقِّي لديهم..

إنَّه بداية لتأريخ جديد، فلا "الميلاد" يعبِّر بوضوح، ولا "الهجرة" تكفي للدلالة..

هذا اليوم، مثّل ميلاد فجركم الذي صنعتموه بعزيمتكم، وهجرة الأمة نحو قلوبكم المتناثرة على تلك الروابي، تمدُّها بسبل الاستمرار على الرغم من ساديَّة الأعداء..

يكفي يومان، ليلتئم قلبكم ويعود نبضه، الشرايين اتَّصلت بسرعةٍ كلحظات استشهادكم، نعم اتَّصلت لتجمع أنهار دمكم الموزّعة في أودية الوطن المنحور هناك..

يومان وعاد النبض إلى تلك القلوب، وتراكمَ نجيعكم في شراييننا العطشى لبعضٍ من هذا الطُّهر..

نعم أحبّتي، لقد أزهر نبضكم حباً وحياةً وانتصاراً، وما الرايات الخفّاقة على شريطهم الشائك سوى إيذانٍ بهذا الانتصار..

ها هي علامات انبعاث الحياة في ملامحنا، تحدّث عن قدسية أرواحكم العامرة بأريج النقاء، وجوهكم المشرقة تلألأت على وجه الشمس، والشمس تخجل من وهج الضياء..

أنظار الجموج المحتشدة عند البوابات تنظر عبر بريق الأمل في عيونكم المحدّقة دائماً نحو المستحيل..

نعم أحبائي، إنَّه المستحيل الذي حقَّقه إصراركم

في هذا الزمن الصعب، ولا عجب فيما نراه، لأنكم أنتم، وأنتم وحدكم تمثلون البُعد الحقيقي لهذا المستحيل..

لم يجرؤ أحدٌّ على هذا الزمن سواكم، فالهزيمة سيدة، والخيانة أوسع انتشاراً، لهاث آخرين وألسنتهم لامست أقدامهم، وآخرون لم يستطيعوا إدراك كنه عقولكم، وما اختزنته هذه الأفئدة..

عمَّت الفرحة القرى التي قلبتموها بسواعدكم، انتشتْ كما الطفل في حضن أمِّه، بل أحنُّ من ذلك، ابتهجت الساحات، واهتزت التلال طرباً مغازلةً النسائم المحمَّلة بعبير أنفاسكم الندِيَّة، واليهود اندحروا شرَّ اندحار..!

انتظرناكم أحبَّتي لتكحِّلوا عيوننا برؤياكم، لتحدثونا عن سرِّ انتصاركم، وعظمة كظمكم لآلام الجراح..

انتظرناكم لنقلِّب السهول والأودية معاً، لنستعيد محطاتكم وذكرياتكم بجانب تلةٍ ونهر وواد، علَّنا نحسُّ ببعضٍ ممَّا عشتم، ونتحسَّس القليل ممَّا عايشتم، ونفهم سرَّ صبركم، وسرَّ استشهادكم الذي أربك عدوكم كما أقلقته حياتكم..

اغرورقت عيوننا بفرحكم القادم مع الرايات..

وحنينٌ لحنانكم المشحون بأجمل الذكريات. وأعذب الهمسات..

إنكم عظماء حقاً..

تصنعون لنا كلّ هذا الفخر.. وترحلون

تمدُّوننا بكرامة الحياة.. وتغيبون

تهبوننا فيضاً من دم.. ودمكم تنثرون

تكبر قلوبنا بعطاءاتكم.. وقلوبكم تمزقون.

شكراً لكم كلّ هذا الشموخ، وها هو زرعكم قد أنبتَ في أزقة "نابلس" أطهر دماء، أزيز رصاصها صدًى لنداءاتكم، وانتفاضة الأقصى المبارك تنفيذٌ حرفيٌّ لوصاياكم..

ومن دورة الأيام والفصول يستوحي "الأستاذ محمد" كلمته، فيقول:

يُحْمُر.. يا دمعة أيلول عند وداع النوارس الحزينة، ويا أكفان كانون تبشّر بحياةٍ جديدة، يا فراشة على ثغر نيسان، ويا فتوّة حزيران، كم تشتهيك العيون رغيف خبز لوّنه تمّوز!

عندما تبرز الغزالة، عروس النهار، ناثرة جدائلها الذهبية على كتفَي الليطاني، العطش يختار ضحاياه، فتنحني السَّنابل إجلالاً، جاءك، والمهر ثمين يورّع قبلاته

على السُّهول والسّفوح، جاءك والعطاء يخلع على الروابي حلّة الجنى وثوب الضياء، هنا توتةٌ تصافح الشمس، وهناك تينةٌ تبلغ سنّ الرّشد متوشحةً بالحياء، وتلك صفصافة توشوش النَّهر الذي أسرج الخُطى، مشعلاً قناديله الضاحكة..

جاءك، يا قريتي فتاك يغزل النّجوم وشاحاً، ينبض بالماء والطلّ والهواء، فيطول الشهر، ويطيب السَّمر..

آه، يا قريتي! يا مخدع الطيور النائحة بين أحضان الشتاء، يا طلّة البراعم الحالمة على أغصان الربيع، يا ضياء البساتين والكروم فوق أكفّ الصَّيف..

ما أجملك بأطفالك رجال الغد وأمل المستقبل، الذين من أكفِّهم تسطع الشمس، وخلف خطواتهم تخضرّ الحياة، ومن ندى جبينهم يستيقظ المجد، بيدهم الإصلاح والتغيير، والنصر والتحرير..

بَنوكِ، الذين قدَّموا نفوسهم رخيصة أثناء الاحتلال الصهيوني الغادر، لم يبخلوا بدمائهم من أجل الغاية الأسمى..

معاً نلتقي، نتنشّق نسيم الحرّية المفعم بعطر الشهادة، فيزرع الرجال قاماتهم في السَّاحات، ويوزّع الأطفال ضحكاتهم فوق الروابي وبين الأزقة، هؤلاء هم

أبناء قريتي، هؤلاء العظماء، يتقزَّم الكلام في محضر الشهداء، الأحرف تطأطئ رؤوسها إجلالاً لهم، جراحهم قناديل باسمة، دماؤهم قمح الفداء وسنابل النصر..

ما أروعك يا يُحْمُر.. كئيبةً في وشاحك الخريفي، صبورةً في كفنك الشتوي، مستبشرةً في ثوبك الربيعي، ضاحكةً في ردائك الصيفي..

ما أعظمك..! تتجدَّدين وتستمرُّ الحياة.

وفي الختام يلقي الشاعر معروف فضل الله [1] قصيدة من وحي المناسبة، بعنوان: لكأنَّما الشفَقان من دمهم دم.

حيِّ الشهيدَ ففي علاه الأنجمُ ... سطعتْ يشعُّ على جوانبها الدَّمُ
وعلى فمِ الآفاق من عليائِه ... قمرٌ يهلُّ وكوكبٌ يتبسَّمُ
قَصُرَتْ قوافي الشعر عن إكرامه ... ولَو انَّه مدَّ اليراعةَ عَيْلمُ
مَنْ موتُهُ في الله عينُ حياتِهِ ... ماذا يقول به اللِّسان المُلجَمُ
راسٍ على الجبل الأشمِّ منارةً ... للتائهين إذا استبدَّ الأظلمُ
باقٍ على رغم الزمان مخلَّدٌ ... حيٌّ له رزق السَّماء مكرَّمُ
وله مقام الصَّادقين منعَّماً ... في الجنَّتين وللغزاة جهنَّمُ
حسْبُ الشهيد مكانةً وكرامةً ... أنَّ الكتاب بذكره يترنَّمُ
كم راح يفتك بالعدوِّ سلاحه ... ويذيقه ألم العذاب ويطعمُ

(١) الشاعر معروف فضل الله، عاشقٌ متيَّمٌ بلغة القرآن، تشهد له منابر الشعر، وتأنس الأفئدة بعذوبة قصائده.

ونداؤه «اللـه أكبـر» حسْبُـهُ ... عند التَّزاحم ثورة تتضرَّمُ
ونداءُ زغردةِ السِّلاح إذا الوغى ... حمي الوطيسُ به ولجَّ المجرِمُ
قلْ للغزاةِ وقد تناثرَ جمْعُها ... أشلاءَ تذروها الرِّياحُ وتحطمُ
ذلَّتْ صنائِعُكِ الألدُّ خصومةً ... وربيبُكِ المتصهينُ المتوخِّمُ
وصقور حربِك قُلِّمتْ أظفارُها ... بيدِ المقاوم والحمائم هُوَّمُ
وفتى الجهادِ كما خبرْتِ بلاءَهُ ... في الحادثاتِ ألدُّ منكِ وأخصمُ
فلتحشدِ الدُّنيا علينا جُنْدَها ... فاللهُ يقضي ما يشاءُ ويحكُمُ
ما زالَ دينُ اللـه ملء إهابِنا ... يغلي به دمُنا الّذي لا يُهْزَمُ
إنْ عدتُمُ عدْنا وتلك بلادنا ... حَرَمٌ على كلِّ الغزاة مُحرَّمُ
لن نترك الحجر المقدّس في الوغى ... وبه سنرمي المعتدين ونرجمُ
ونفكّ أيدي القدس من أغلالها ... وتعود يحضنها الحطيم وزمزمُ
ونعيد مجد الأمس من أطرافه ... وتُسَرُّ فاطمة وتهنأ مريمُ
يا أيّها الشهداء عطر دمائكم ... بأريج زاهرةِ الكرامةِ ينسمُ
من ذا أعدّ بكلِّ أفْقٍ منهمُ ... أتُرى على الآفاق تُحصى الأنْجُمُ
وعلى الزَّمان مخلَّدون شواهد ... لكأنَّما الشفَقان من دمهم دمُ
وعليك «يُحْمُرُ» كم توقَّد فرقدٌ ... منهم فضاءَ به الدجيُّ المظلِمُ
غنَّاكِ من غُرَرِ القصيد على الهوى ... قلمٌ متى يُفْصحْ جهادُكِ أبكمُ